وكما لا يقبل هنا إلا العدول الخيار كذلك هناك بقوله تعالى (ممن ترضون من الشهداء) فلما كان هنا لا يؤخذ إلا المرضى الحال فلا يؤخذ هناك ضده هذا ما تقتضيه الحكمة ﴿ وفيه إشارة لطيفة ﴾ وهي أن إعلامك بهذه المرتبة الرفيعة عناية بك لتحافظ عليها لعلك ممن تكون يشهد إذ ذاك لأنه يرجى من فضل الكريم أن من قبلت شهادته أن يسامحه ويتفضل عليه بالخلاص من ذلك الهول العظيم ﴿ وفيه تنبيه ﴾ إلى أن الشهود وإن اختلفت مراتبهم في الرفعة إذا لم يخرجوا من دائرة العدالة قبلوا كلهم يؤخذ ذلك من قول نوح عليه السلام حين يسئل عن شهوده قال ﴿ محمد وأمته ﴾ فجعله صلى الله عليه وسلم من جملة الشهود وبه صحت العدالة لمتبعيه ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن المخالف للسنة لا يكون ممن يشهد معه ولا يشهد معه إلا من تبعه بالاحسان لأن أولئك هم العدول وغيرهم أطراف لا وسط ولا عدول يقوى ذلك قوله عليه السلام ﴿ كلها في النار إلا واحدة ما أنا عليه وأصحابي ﴾ فمن يكون في النار أنى له بالوسط من الأمة والتعديل هذا في تجريحه أتم دليل ﴿ تنبيه ﴾ يا أخا البطالة والتلويث لنفسك انتبه الحاكم قد زكاك وأنت بما ارتكبت من قبيح الأوصاف تخرج نفسك وبذلك تفرح فقد خضت بحر المهالك وعلى عقبك من الخير نكصت ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن أقوى الأدلة في الأحكام كتاب الله تعالى يؤخذ ذلك من ترك سيدنا صلى الله عليه وسلم تمام الكلام الذي أبداه وأتى بالآية من الكتاب العزيز ومما يقوى ذلك قول معاذ له صلى الله عليه وسلم حين وجهه إلى اليمن قال له عليه السلام «بماذا تحكم قال بكتاب الله تعالى قال فان لم تجد قال بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فان لم تجد قال أجتهد رأيي فقال صلى الله عليه وسلم الحمد لله الذي وفق رسول رسوله إلى ما يحب الله ورسوله» أو كما ورد وفقنا الله في جميع الأمور إلى ذلك بمنه وأسعدنا به

(٢٩١) ﴿ حديث مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا الله تعالى ﴾

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ لَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ إِلَّا اللهُ وَلَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللهُ وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلَّا اللهُ وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللهُ

ظاهر الحديث يدل على هذه الخمسة المذكورة في الحديث لا يعلمها إلا الله والكلام عليه من وجوه ﴿ منها ﴾ أن يقال ما الحكمة في أن استعار للغيب مفاتيح وما الحكمة في أن جعلها خمسا وهل للغيب زيادة على تلك الخمس مفاتيح أم لا وما الحكمة في أن لم يذكر من أمور الغيب إلا تلك الخمسة ﴿ أما قولنا ﴾ ما الحكمة في أن استعار للغيب مفاتيح فلوجوه منها الاقتداء بما به نطق الكتاب في ذلك بقوله تعالى (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر) ومنها لتقريب الأمر على المخاطب لأن أمور الغيب

لايحصيها أحد إلا عالمها وكل شيء حيل بينك وبينه فهو غيب وأقرب الأشياء فى ذلك هى الأبواب والأبواب أقل مايحبسها عن الفتح وأيسرها المفاتيح فاذا كان أيسر الأشياء التى يعرف بها الغيب لايعرف لها احد موضعا فكيف يقدر أن يعرف ماهو أكبر من ذلك هذا محال وهذا من أبلغ البيان وأخصره ﴿ومنها﴾ أنه أراد بالغيب الغيب الذى لايعلمه أحد حقيقة لأن الغيوب على ماهى عليه وإن كانت لبعض الغيوب أسبابا قد يستدل فى بعض المراد بها عليه أن ذلك ليس بحقيقى فى علم تلك الغيوب وأما حقيقتها فلا يعلمها أحد إلا الله تعالى يشهد لهذا التوجيه قوله صلى الله عليه وسلم كناية عن الله سبحانه «أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر بى فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكوكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكوكب» فعلى هذا فالغيب على نوعين غيبه سبحانه عنا بذاته وصفاته وغيب بالأمور الجارية فى مخلوقاته فلما كانت تلك الأمور غائبة عنا لانقدر على العلم بها ولا الوصول إليها وهى محصورة بالكتاب بقوله تعالى (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولاحبة فى ظلمات الأرض ولارطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) ولقوله تعالى (قال فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربى فى كتاب لايضل ربى ولا ينسى) فلما كان جميع الوجود محصورا فى علمه سبحانه شبهه عليه السلام بالمخازن وكل مخزن لابد له من باب وكل باب لابد له من مفتاح فاستعار عليه السلام له المفاتيح يشهد لهذا التوجيه قوله تعالى (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) فاذا كانت الخزائن عنده سبحانه والمفاتيح واحد لانعلم المفاتيح أين هى فكيف يخبر بما فى المخازن هذا لايتعقل وإذا كانت هذه التى هى أثر قدرته سبحانه ولا يقدر أحد أن يعلم منها شيئا إلا أن يخبره سبحانه بها كما قال تعالى فى كتابه (إلا من ارتضى من رسول) فكيف بقدرته جل الله أو بصفة من صفاته على ماهى عليه من الجلال والكمال فكيف بذاته التى «ليس كمثلها شيء» هذا ممنوع عقلا وشرعا ومن تعانى شيئا من المعرفة فى شيء مما قسمنا من الغيوب أو نوع من أنواعه أو تشبيه أو تمثيل بدليل من الأدلة فمحال دعواه وهو ضرب من الحمق ﴿وأما قولنا﴾ ما الحكمة فى أن جعلها خمسا وهل للغيب زيادة على هذه المفاتيح فاعلم وفقنا الله وإياك أن الحكمة فى أن جعلها خمسا الكلام عليه مثل ماتقدم الكلام على قول عائشة رضى الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم «يحب التيامن فى شأنه كله» ثم قالت «فى طهوره وترجله وتنعله» فأتت من الفرائض بآكدها وهو الطهور ومن السنة كذلك وهو الترجل ومن المباح كذلك وهو التنعل فحصرت بهذه الثلاث جميع مايتصرف فيه المرء وكذلك هذه الخمس حصر بها صلى الله عليه وسلم العوالم فقوله صلى الله عليه وسلم ﴿ماتغيض الأرحام﴾ دليل على مايزيد فى النفوس وينقص وذكر منها الأرحام لكونها للناس فى ذلك عوائد يعرفونها وقد تقررت على

ذلك أحكام شرعية فهذه أعلاها فاذا كانت هذه التى قد تقررت عليها الأحكام بحسب جرى العادة لا يعرف حقيقتها لا متى تزيد ولا متى تنقص فغيرها من باب أحرى قد قال تعالى (وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار) فدل بهذا أن غيره سبحانه لا يعلم ذلك ومن هذا الباب كلام العلماء فى عدة الحرة بثلاث حيض فهل ذلك دلالة حقيقة على براءة الرحم أو ذلك تعبد بحسب ماهو مذكور فى كتبهم ولذلك قال جل جلاله (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) فاذا كان الشيء الذى هو فيك لا تعرفه فكيف غيره من باب أحرى ودل بقوله ﴿ ولا يعلم متى يأتى المطر أحد إلا الله ﴾ على أمور العالم العلوى وذكر منها المطر لأن لنا أسباب قد تدل عليه ونجدها فى بعض المرار يجرى فيها ما يغلب على الظن من جرى العادة المتقدمة فى مثلها وهو أيضا كثير كما يتردد إلينا وجعل لنا فيه وبأثره بحسب مقتضى الحكمة الالهية رزق وخير لا نعرفه حقيقة فكيف غيره من باب أحرى وكذلك جاء الحديث الذى قد ذكرناه وهو قوله « أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر بى » وكان أبو هريرة رضى الله عنه إذا أصبح وقد مطر الناس يقول مطرنا بنوء الفتح ثم يتلو هذه الآية (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها) ودل بقوله (وما تدرى نفس بأى أرض تموت) على الجهل بهذه الأمور الأرضيات وذكره موضع الموت منها لأن العادة قد جرت غالبا أن أكثر الناس موتهم بالأرض التى هم بها والحكم فى الأمور يعطى للغالب وإن مات بها لا يدرى حقيقة ضريحه منها أين هو فاذا كان هذا المقدار الذى يخصه منها على قلته ونذارته لا يعلمه فى باب أحرى غيره من رزق أو خير أو ضده ولذلك قال عز وجل فى كتابه (وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير) ودل بقوله ﴿ ولا يعلم ما فى غد إلا الله ﴾ على أنواع الزمان وما فيه من التقلبات والعوالم الطارئة فيه والحوادث وخص منه غدا على غيره لأنه أقرب الأزمنة من يومك فلا زما تعرفه فى يومك بظهوره كان أوله أو آخره كأنه شيء واحد لأن عادة العرب ما يكون فى ساعة واحدة أو فى بعضها ينسبونه كله إلى يوم مثل قولهم جاء زيد يوم الخميس ولم يكن مجيئه إلا فى ساعة منه أو فى بعضها وكذلك أيضا أحكام الشريعة غالبا منها العدد ومنها الحيض إذا رأت المرأة الدم فى اليوم ولو دفعة واحدة حسبت ذلك اليوم يوم دم فاذا كنت فى أقرب الأزمنة وهو غد لا تعرفه فمن باب أحرى غيره ودل بقوله ﴿ ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله ﴾ على علم الآخرة بأجمعها وذكر يوم القيامة منها لأنه أولها وأقربها فاذا كنت لا تعلم أقرب الأشياء منها وهو يوم ظهورها وبدايتها فمن باب أحرى غير ذلك وقد قال الله تعالى (لا تأتيكم إلا بغتة) أى على غفلة وقد قال تعالى (ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة) أى عظم أمرها على أهل السموات والأرض والكل جاهلون بها ومما يشهد لذلك قول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام حين

سأله عنها «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ولكن أخبرك بشروطها أن تلد الأمة ربتها فذلك من أشراطها وأن ترى الحفاة العراة الصم البكم ملوك الأرض فذلك من أشراطها وأن ترى رعاة البهم يتطاولون فى البنيان» أو كما قال عليه السلام فهذا من أبدع الكلام وأبلغه الذى حصر فيه جميع أنواع الغيوب وأزال به جميع الدعاوى الفاسدة والأدلة كلها ماعدا أدلة الشريعة على الحد الذى جعلتها وعلى الوجه الذى بينتها وتحقق به لأهل الايمان إيمانهم وحسن اعتقادهم بغير سير ولا تقسيم ولا تنويع ولا تخييل ولا تحديد ولا تكييف ولا دعوى ولا اعتراض ولا مقدمة ولا نتيجة ولا هياكل ولا عناصر ولا أعراض ولا جواهر ولا حكمة ولا طباع إلا بفضل كريم وهاب عليم قدير مدبر حليم ﴿ليس كمثله شيء وبيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير وهو اللطيف الخبير﴾ ﴿وفيه تنبيه﴾ لطريق أهل الفضل والسلوك وهو ترك الالتفات إلى ماسواه عز وجل والاشتغال بما به أمروا والانتهاء عما عنه نهوا ولم يدعوا مع ما به من عليهم من الأحوال السنية والعلوم الجليلة شيئا ما لدوام الفقر والافتقار وخوف العدل العظيم والتعلق بجناب الفضل العميم ولا يرون خلاصا إلا به سبحانه من الله علينا بذلك لارب سواه يشهد لطريقهم المبارك واعتقادهم الحسن الموافق الكتاب والسنة أما الكتاب فمعلوم فى غير ما آية وأما السنة فقوله عليه السلام إخبارا عن ربه عز وجل بقوله ﴿يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئا يا عبادى لو ان أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد مانقص ذلك من ملكى شيئا يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد وسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته مانقص ذلك ماعندى إلا كما ينقص المخيط إذا دخل فى البحر يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه﴾ أو كما قال عليه السلام فتحقق بمتضمن ماأوردناه أوصاف الربوبية وجلالها وفضيلة سيدنا صلى الله عليه وسلم وحسن هديه لأمته وأوصاف العبودية ونقصها وحقارتها وعظم افتقارها للربوبية ودوام اضطرارها كما قال الكليم عليه السلام (رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير) جبر الله تعالى بغناه فقرنا وأزال بفضله جهلنا وتجاوز برحمته عنا لارب سواه ولا مرجو إلا إياه والحمد لله رب العالمين

(٢٩٢) ﴿ حديث ذكر الله تعالى لعبده إذا ذكره ﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً

ظاهر الحديث يدل على حكمين (أحدهما) إخبار الصادق صلى الله عليه وسلم أن المولى سبحانه مع عبده على قدر ظنه بمولاه (والثاني) الاخبار بأنه معه بحسب معاملته أو عبادته له والزيادة على ذلك بحسب التضعيف المذكور في الحديث والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال هل هذا الظن على بابه أو هو بمعنى العلم والقطع وهل الذكر هنا مجرد الذكر بالقلب أو باللسان وإن كان لا يعلم من الأوامر شيئا أو يكون ذكره بالأفعال بالأمر والنهي لأن الذكر بساطها وما تأويل الصفات المذكورة في الحديث من قبل المولى سبحانه ﴿ أما قولنا ﴾ هل الظن هنا على بابه أو هو بمعنى العلم القطعي ﴿ فالجواب ﴾ أنه لا يمكن أن يكون الظن هنا على بابه بل معناه العلم الحقيقي كقوله تعالى (وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه) وهم قد علموه علما حقيقيا ولأن هذه الأمور القلبية كلها ما نحن فيه إنما مطلوبون إلا بتحقيق الاخلاص لقوله عز وجل (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء) والتصديق القطعي في كل ما به أخبرنا عن الاله وما به أنعم علينا من قبيل ما كلفنا من التعبدات والتحقيق بجزيل الثواب الذي وعدنا والخوف مما به توعدنا لمن خالف أمره عز وجل ذلك كله بلا شك ولا ريب وكذلك ما به من أمور الآخرة أخبرنا ولذلك قال تعالى في صفتهم (ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا) إلى قوله تعالى (إنك لا تخلف الميعاد) وقال تعالى (ومن أوفى بعهده من الله) فالاشارة هنا إلى هذا بقرينة الحال وهي ما ذكر بعد في باقي الحديث من قوله تعالى ﴿ إذا ذكرني ﴾ إلى قوله ﴿ أتيته هرولة ﴾ حتى يفهم معاني تلك الألفاظ ويصدق بها حتى لا يدخل على المرء فيها شك ولا ريب فيعامل مولاه بجد وتحقيق بما وعده ويتحقق أن ذلك فضل منه سبحانه على عباده وهو الغني المستغني ولأجل هذا قال صلى الله عليه وسلم « ما فضلكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر في صدره » وقال عليه السلام في حديث تعليم الايمان « أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » وقد روي في الاسرائيليات أن أخوين كان أحدهما عابدا مشهورا بالتعبد والآخر مشهورا بضده

فماتا معاً فأخبر موسى عليه السلام أن العابد منهما من أهل النار وأن المسرف منهما من أهل الجنة فتعجب موسى عليه السلام وبنو إسرائيل من ذلك ثم أن موسى عليه السلام بعث إلى امرأة العابد فسألها عن حاله فقالت لا أعرف منه إلا ما تعرفون أنتم غير أنه كان إذا فرغ من تعبده ودخل فراشه قال أفلحنا إن كان ماجاء به موسى حقا فقال موسى عليه السلام من هذا أتى ثم سأل زوجة المسرف فقالت لا أعلم منه إلا مثل علمكم ولكنه كان إذا أفاق من نشوته مع آخر الليل يخرج إلى ساحة الدار ويقر لله بالوحدانية ولك بالرسالة ويبكى ويقول يارب أى زاوية من زواياجهنم تملأ بهذا الجسد الخبيث فقال موسى عليه السلام بهذا سعد أو كما روى ﴿ وأما قولنا ﴾ هل يريد بالذكر أن نذكره كيف كان أو يريد به الذكر بالأعمال اللفظ يحتمل لكن الذى تدل عليه الأدلة الشرعية أن الذكر على نوعين ذكر مقطوع لذاكره بهذا الخبر الذى فى الحديث الذى نحن بسبيله وذكر ثان الأدلة فيه متعارضة منها مايدل على أنه فى جملة الذاكرين لقوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) وأدلة أخر تمنع ذلك كقول مولانا سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام (قر للظالمين لا يذكرونى فانى آليت على نفسى أن من ذكرنى ذكرته فاذا ذكرونى ذكرتهم بالغضب) ولقول سيدنا صلى الله عليه وسلم فى المصلى الذى لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا فكيف بالذكر وحده ولم يجعل عز وجل الذكر فى كتابه إلا بعد تحقيق الايمان بقوله تعالى (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات إلى قوله تعالى والذاكرين الله كثيرا والذاكرات) فهذه مبينة لما نحن بسبيله وأما ذكره عز وجل بالأفعال فهو الأفضل ويكفى فى ذكر ذلك قول عمر رضى الله عنه « ذكر الله عند أمره ونهيه خير من ذكره باللسان » إلا إن كان هذا العاصى ذكر مولاه بخوف وخجل مما هو فيه فيرجى له فضل المولى مثل ماتقدم من ذكر أحد الأخوين المسرف على نفسه منهما ولقول مولانا سبحانه « أطلبونى عند المنكسرة قلوبهم من أجلى » ﴿ وأما قولنا ﴾ ماتأويل الصفات التى فى الحديث من قبل مولانا سبحانه فهذه من التى لها تأويل غير ظاهرها ونحتاج أن نتكلم عليها واحدة واحدة أما قوله ﴿ وأنا معه إذا ذكرنى ﴾ فمعناه إذا ذكرنى فأنا معه بحسب ماقصد فى ذكره فان ذكرنى بالتعظيم كنت معه بالانعام عليه والاحسان كقوله تعالى فى كتابه (فاذكرونى أذكركم) أى أرحمكم إذا ذكرتمونى وقد قال تعالى (ولذكر الله أكبر) أى هو أكبر العبادات وإذا ذكرته فى خوف ذكرك بالرحمة لك والخلاص مما خفته لقوله عز وجل (أمن يجيب المضطر إذا دعاه) ولقوله تعالى فى الحديث القدسى « من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ماأعطى السائلين » لأن شغلك فى خوفك واضطرارك عن مسألته سبحانه بذكره أوجب لك النجاة مما تخافه وكذلك فقس فى كل الأمور تجده لا ينكسر فان ذكرته عند وحشتك آنسك بذكره وقد جاء عنه سبحانه أنه قال « أنا جليس من ذكرنى » ولد لك لما أن دخل على بعض

المباركين وهو وحده وهو يذكر فقيل له وحدك فقال لهم الآن أنا وحدى لأن هذه كلها دالة على ماقلناه أولا من أن الظن يكون بمعنى العلم القطعى ومما يقويه أنه سئل بعض المباركين ماتلت من عبادتك قال الأنس بالله تعالى فقال له السائل حسبك فلم ينل منه الأنس إلا مع صدقه وتصديقه بما قيل له ووعد به وقد قال تعالى ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ أى التى من الله سبحانه عليها بالعلم والعمل والحضور لأن صاحب القلب الغافل لسانه يذكر وقلبه فيما هو بسبيله يجول وكيف يجد هذا بذكر الله طمأنينة وأنى له ذلك وقد قال عليه السلام « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم » وقوله ﴿ فان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ﴾ احتمل أن يكون هذا إشارة إلى فضيلة الذكر الخفى على الذكر الجلى لأن ماينفرد به المولى سبحانه وحده بذاته الجليلة أفضل مما سواه وقد جاء هذا نصا منه صلى الله عليه وسلم بأن قال « الذكر الخفى يفضل الجلى بسبعين درجة » أو كما قال واحتمل أن يحمل على ظاهره فيكون المعنى أن الذى يذكر الله فى نفسه من جملة ما أنعم الله عليه من أجل أن ذكره فى نفسه أن مولاه سبحانه ذكره فى نفسه أعنى الله يجازيه على ذكره بثواب لا يطلع عليه غيره سبحانه وتعالى وإن ذكره فى ملأ ذكره الله بجزاء الثواب بحضرة الملأ الأعلى وشهادتهم ونبه هنا بالأعلى مما من به على عبده على الأدنى فان ماسوى ذلك من الحسنات والخير هذا أعلا منه وقوله ﴿ فان ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم ﴾ أى فى العالم العلوى فدل بهذا على تفضيل العالم العلوى على هذا العالم وسكت عما له من الأجر فى ذلك لأنه قد ثبت بالكتاب والسنة أن ذكر المولى سبحانه عبده رحمة له والآى فيه والأحاديث كثيرة ﴿ وفى هذا أعظم دليل ﴾ على أن المولى جل جلاله (ليس كمثله شىء) يؤخذ ذلك من قوله تعالى ﴿ فان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وإن ذكرنى فى ملاء ذكرته فى ملاء خير منهم ﴾ وبالعلم القطعى أن فى الزمان المفرد بذكره جل جلاله جمع كثير فى أنفسهم فى مشارق الأرض ومغاربها وفى ذلك الزمان نفسه يذكره تعالى جمع كثير بالجهر ولا يعلم قدرهم إلا هو سبحانه وهو عز وجل يذكر الجميع واحدا واحدا بحسب ذكره له من سر أو جهر مع ماهو سبحانه فيه من حمل جميع الموجودات بقدرته وحكمته على ماجرى فيهم سابق علمه هذا لاتحده العقول ولا تخيله الأذهان ولا يحد ولا يوصف جل جلاله وتقدست أسماؤه ومن أجل الايمان بهذا ومايشبهه استفتح عليه السلام الحديث بقوله سبحانه ﴿ أنا عند ظن عبدى بى ﴾ وأما قوله تعالى ﴿ وإن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا ﴾ إلى آخر الحديث فهذا ليس على ظاهره بدليل أنك تجد ذلك من نفسك الذى أنت محدود متحيز على غير ظاهره فكيف فى جانب من لا يحد ولا يكيف وإلا فأين الموضع الذى تقرب فيه من مولاك كشبر أو ذراع أو باع أو أى موضع يأتيه يمشى لأنه عز وجل ليس له جهة محدودة فيقرب من تلك الجهة بحسب هذه التنويعات

فما بقى إلا التأويل من الجهتين ويكون المعنى فى ذلك انك مهما تقربت إلى مولاك بجهة من وجوه القرب فهو بفضله يجازيك على ذلك بأكثر مما جئت به وقد بين عز وجل ذلك بقوله (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) وقد جاء أن الحسنة بعشر وجاء بسبعين وجاء بسبعمائة وجاء بأكثر من ذلك بقوله تعالى (والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) ﴿ وهنا بحث ﴾ فى تبيين هذه الحالات من الشبر إلى المشى هل هذه الدرجات من جهة الأعمال المحسوسة أو من جهة النيات أو من مجموعهما احتمل والأظهر المجموع بدليل قوله سبحانه على لسان نبيه عليه السلام «لن يتقرب إلى المتقربون بأحب من أداء ماافترضت عليهم ثم لايزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها » وجاء قوله صلى الله عليه وسلم « أوقع الله أجره على قدر نيته » مما يدل بهذا أن الأعمال فى نفسها بعضها أقرب إلى الله تعالى من بعض ولذلك قال تعالى (يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب) وبان أن حسن النية يزيد العمل رفعة وقربا إلى الله سبحانه ولذلك قال سبحانه (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) فما أثنى عز وجل عليهم إلا بحسن نياتهم وجميل قصدهم ﴿ ويترتب على هذا من الفقه ﴾ أن يكون للمرء اعتناء بترفيع عمله بأن ينظر الأعلى فالأعلى فى أعيان الأعمال وفى تحسين النية فيها ما أمكنه ولايخلى قلبه من ذكر مولاه والشغل بما يقربه إليه لأن هذه هى الفائدة التى تترتب على معرفة هذا الحديث مع قوة اليقين وخالص الايمان والصدق والتصديق الذى لايخالطه شك ولاريب وإلا كان الأمر عليه لاله جعلنا الله ممن هداه ووفقه لما يقربه إليه ونفعه به بمنه

(٢٩٣) ﴿ حديث الحث على قيام الليل ﴾

عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةً فَقَالَ لَهُمْ أَلَا تُصَلُّونَ قَالَ عَلِيٌّ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللهِ فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قُلْتُ لَهُ ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُدْبِرٌ يَضْرِبُ فَخِذَهُ وَيَقُولُ (وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا)

ظاهر الحديث يدل على ثلاثة أحكام (أحدها) الحض على قيام الليل (والثانى) أن استيقاظ النائم إنما هو بيد الله تعالى لاعمل فيه للخلق (والثالث) أن الجواب بالقدرة على الحكمة ليس من طريق التكليف والقصد أن يكون الجواب على الحكمة بمقتضى الحكمة وعلى القدرة بمقتضى القدرة والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ جواز المشي بالليل إلى دور القرابة وذوي الأرحام يؤخذ ذلك من قوله ﴿ طرقه وفاطمة ليلة ﴾ لأن كل ما يأتي بالليل يقال له طارق وكذلك بالنهار ولذلك كان من دعائه ﷺ أنه كان يستعيذ من «طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير»(١) ﴿ وفيه دليل ﴾ على أنه إذا تكلم العالم بمقتضى الحكمة وكان ذلك في غير واجب فوقع الجواب على ذلك بالقدرة أن ذلك كاف في الجواب ويقطع البحث يؤخذ ذلك من أنه لما طالبهم سيدنا صلى الله عليه وسلم بأثر الحكمة وهو قيام الليل وجاوبه علي رضي الله عنه بأثر القدرة وهو إخباره بقوله ﴿ إنما أنفسنا بيد الله فاذا شاء أن يبعثنا بعثنا ﴾ فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال له ذلك ولم يراجعه بشيء ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن الرجل إذا كان الخطاب له ولأهله هو أولى بالجواب يؤخذ ذلك من خطاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لبنته ولعلي صلوات الله عليه ورضي الله عنهم أجمعين فجاوبه علي رضي الله عنه وسلم له رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك بانصرافه من حينه ولم يقل له شيئا ﴿ وفيه دليل ﴾ على جواز محادثة الشخص نفسه بأمر الغير يؤخذ ذلك من قول سيدنا صلى الله عليه وسلم بعدما ولى عنهم وهو وحده ﴿ وكان الانسان أكثر شيء جدلا ﴾ ﴿ وفيه دليل ﴾ على جواز ضرب المرء بعض أعضائه ببعض على أمر يتعجب أو يعلم به غيره إشعارا له أنه ما رأى منه لم يوافقه ولا يعجبه يؤخذ ذلك من ضربه صلى الله عليه وسلم فخذه بعد ما ولى عنهم وكلامه إذ ذاك بقوله (وكان الانسان أكثر شيء جدلا) لأن يعلمهم أن ذلك الجواب لم يرتضه منهم ﴿ وهنا بحث ﴾ وهو أن يقال لم لم يقل لهم ذلك مشافهة ﴿ فالجواب ﴾ أنه لما علم سيدنا صلى الله عليه وسلم أن عليا رضي الله عنه لا يجهل أن الجواب بالقدرة عن الحكمة أنه ليس من الحكمة فاحتمل إن كان لهما عذر يمنعهما من الصلاة واستحى أن يذكره للنبي صلى الله عليه وسلم ولا يمكنه عدم الجواب له فدفع الخجل عن نفسه وعن أهله بذكر القدرة ولذلك الامكان ولى النبي صلى الله عليه وسلم عنهم مسرعا من أجل أن لا يشغلهم عن أخذ الأهبة للصلاة واحتمل أن يكون ذلك من علي رضي الله عنه استدعاء جواب من النبي صلى الله عليه وسلم لا يزيده فائدة فكان ضرب فخذه صلى الله عليه وسلم وهو مولى وكلامه بما به تكلم جوابا لعلي رضي الله عنه لأن يحقق عنده الأمر على

(١) عن يحيى بن سعيد أنه قال لما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى عفريتا من الجن يطلبه بشعلة من نار كلما التفت رسول الله صلى الله عليه وسلم رآه فقال له جبريل ألا أعلمك كلمات تقولهن إذا قلتهن طفئت شعلته وخر لفيه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بلى فقال جبريل فقل ﴿ أعوذ بوجه الله الكريم وبكلمات الله التامات اللاتي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء وشر ما يعرج فيها وشر ما ذرأ في الأرض وشر ما يخرج منها ومن فتن الليل والنهار ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير يا رحمان ﴾ رواه إمام الأئمة في موطئه والنسائي في سننه والبيهقي في الأسماء والصفات

ماهو عليه وأن العبودية شأنها أن لا يطلب انفسها عذر مع الشريعة أبدا إلا الاعتراف بالتقصير والأخذ بالاستغفار والاعتذار ﴿وفيه دليل﴾ على فضل على رضى الله عنه يؤخذ ذلك من روايته لهذا الحديث وقد يسبق لفهم من لا يعرف قدره مايحتمل الحديث من العتب عليه وحاشاه من ذلك فلما كان الاخبار به مما يترتب عليه فى الدين فوائد لم يبال بشيء من ذلك ﴿وفيه إشارة﴾ إلى أن من حقيقة الصحبة والقرابة التذكار عند الغفلة يؤخذ ذلك من كون سيدنا صلى الله عليه وسلم لم يطرقهم ليلا إلا ليذكرهم بالصلاة لأن الليل وقت غفلة وإن كان حالهم جميعا لا يقتضى غفلة لكن فى زمان الغفلة ينبغى أن يلتفت فيه إلى حال القرابة والاخوان وهذا من السنة وإن كانوا لا يغفلون غالبا لكن ذلك الخوف ماطبعت عليه البشرية ﴿وفيه إشارة﴾ إلى الالتفات إلى الأصل وإن كان الظاهر خلاف، لأن الأصل من الغفلة وأشباهها والتوفيق والتزكية فضل ربانى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبدا) فينبغى على هذا أن يتفقد المرء نفسه وأحبابه بتذكار الخير والعون عليه وإن كان سبحانه قد من عليهم بذلك لكن ذلك من أجل ماذكرناه ولكى يحصل فضل آخر وهو دخولهم بذلك تحت حد قوله عز وجل وتعاونوا على البر والتقوى) وكذلك كانت سنة سيدنا صلى الله عليه وسلم يتفقد الصحابة رضى الله عنهم بالموعظة فى بعض الأيام وهم على ماهم عليه من قوة الايمان وكانوا يودون أن لو كان ذلك كل يوم فقال لهم « مايمنعنى من ذلك إلا خوف السآمة والملال عليكم » فبهداهم اقتده جعلنا الله ممن اهتدى بهديهم بمنه

(٢٩٤) ﴿حديث اذا أحب الله عبدا أمر جبريل بأن يحبه﴾

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِى جِبْرِيلُ فِى السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِى أَهْلِ الْأَرْضِ

ظاهر الحديث يدل على أن الله عز وجل إذا أحب عبدا خلع عليه خلع العناية فيأمر جبريل عليه السلام بأن يحبه ثم ينادى جبريل فى أهل السماء يحب الله عبده ويأمرهم بحب ذلك العبد المحبوب عندمولاه ويضع له فى أهل الأرض القبول والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال مامعنى حب الله تعالى للعبد وما معنى حب جبريل عليه السلام له وحب الملائكة وما معنى القبول ﴿فأما قولنا﴾ مامعنى حب الله لعبده فقد تقدم الكلام على هذا المعنى وما يشبهه أن حقيقة الحب من الله لعبده ليس كحب العبيد بعضهم لبعض بالولوع به والأنس به وميل القلب إليه وإنما معناه رضاه حاله وما هو عليه وكثرة إحسانه لقوله عز وجل (يحبهم

ويحبونه) أى يحبهم فيحسن إليهم على حبهم له فلكثرة الاحسان منه عز وجل عبر عليه السلام عنه بالحب لأنه مما عرفنا بيننا أن كثرة الاحسان منا بعضنا لبعض إنما بساطه الحب من المحسن الذى إليه الاحسان ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « حبك الشىء يعمى ويصم » أى يعميك عما سواه وكذلك يصمك عما سواه فلا تكاد ترى ولا تبصر إلا هو ويعميك أيضا عن عيوبه وهذه صفة المحدثين وهى فى حق المولى جل جلاله مستحيلة وفى تعبيره عليه السلام عن كثرة الاحسان بالحب تأنيس للعباد وإدخال مسرة عليهم لأن العبد إذا سمع عن مولاه أنه يحبه هو أعلا السرور عنده وتحقق بكل خير ونعمة زائدة على ذلك وهذا الخطاب إنما هو لمن فى طبعه فتوة ومروءة وعروبية وفضيلة وخير وإنابة ولذلك قال عز وجل (وما يتذكر إلا من ينيب) ومن فى نفسه شراهية ورعونة ولشهوة غالبة فلا يردعه إلا الضرب والزجر والتعنيف ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « ينتزع الله بالسلطان مالا ينتزع بالقرآن » لأن السلطان هو الذى جعل له الزجر والتعنيف بالضرب والقتل وغير ذلك ﴿ وأما قولنا ﴾ مامعنى حب جبريل عليه السلام فهو يحتمل وجهين أن يكون حب ولوع بالشخص يخلقه الله فيه عند أمره له بحب العبد ويكون من جملة فوائد حبه له أن يكون يواليه ويدعو له بالخير كما جاء « إن الملائكة تحب صاحب العلم الذى هو لله وترغب فى صحبته وتدعو له وبأجنحتها تمسحه » وقد يحتمل أن يكون معنى حبه له ترفعته وتكرمته لكونه له عند الله تعالى مكانة حسنة لأن العبيد فى الحب والبغض للمولى متبعون وكذلك فى الغضب والرحمة للمولى متبعون أيضا ولذلك جاء فى حق الزبانية أنه « إذا أمر الله عز وجل بالمجرمين أن يقذفوا فى النار فتأخذهم الزبانية فيتمزقون فى أيديهم فيقولون لهم ألا ترحمونا فيقولون لهم إذا كان أرحم الراحمين لم يرحمكم فكيف نرحمكم نحن » أو كما ورد فالعبيد كلهم أهل العالم العلوى والسفلى تابعون لما به يؤمرون إما بالمقال وإما بالوضع ولذلك لم يشتغل أهل العقول الوافرة إلا بالعمل على رضى مولاهم ولم يبالوا بغيره حتى أن من كلام بعضهم

فياليت مابينى وبينك عامر ... وبينى وبين العالمين خراب

ومثل الجواب عن حب جبريل عليه السلام الجواب على حب الملائكة عليهم السلام بالسواء لكن فى تقديم الأمر لجبريل عليه السلام قبل غيره من الملائكة إظهار لترفيع منزلته عند الله تعالى على غيره من الملائكة ﴿ وأما قولنا ﴾ مامعنى القبول احتمل أن يكون على ظاهره وهو معنى الترفيع له والاكرام يقال أقبل فلان على فلان إذا أكرمه ورحب به وقد جاء من طريق آخر فى حديث غير هذا « وبوضع حبه على الماء » فعلى هذا يكون جميع من فى الأرض من إنس وجن وملائكة وقد جاء أن « مامن موضع شبر فى السماء إلا وملك واضع جبهته فيها ساجد لله تعالى » أو كما ورد(١) « ومامن حيوان

(١) ولفظ الحديث قال رسول الله ﷺ « إنى أرى مالا ترون وأسمع مالا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط مافيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله » رواه الترمذى فى جامعه عن أبى ذر رضى الله تعالى عنه وأدرج فيه « لوددت انى كنت شجرة تعضد » على ما اختاره القاضى عياض فى شفائه خلافا لأبى بكر بن العربى فى العارضة

على اختلافهم إلا يقبل عليه » وقد جاء ما يفسر هذا فى حق صاحب العلم الذى هو لله أنه يستغفر له كل شىء فى الأرض حتى الطير فى الهوى والحوت فى البحر وهوامه وجميع الأنعام وحشرات الأرض وشجرها ومدرها وكل ما فيها هولاء كلهم يدخلون تحت قوله هنا أهل الأرض أى كل ما فيها فانه إذا جمع من يعقل مع من لا يعقل يجمع بلفظ من يعقل فقد يكون معنى ما ذكرناه فى حق العلم الذى هو لله فان هذه المنزلة أرفع المنازل عند الله تعالى لأن هؤلاء السادة هم «ورثة الأنبياء» (١) عليهم السلام ويكون فى غير العالم فى غير أهل جنسه وهو تفسير القبول الذى يوضع له فى الأرض وقد ذكر الامام عن بن رزق رحمه الله أن الله تعالى لا يزال بعبده الصالح حتى يحببه لعباده ويلقى خوفه فى قلوبهم ويسهل عليه طاعته ويرزقه حلاوتها ويشهد لقول هذا الامام هذا الحديث الذى نحن بسبيله مع قوله صلى الله عليه وسلم « من خاف الله خوف الله منه كل شىء » فاذا جمع الله فى قلوب عباده الحب والخوف جاء ما قاله الامام سواء بسواء فلا يكون فى هذه المنزلة إلا وقد خفت الطاعة عليه وأنس بها فيحصل له من ميراث « أرحنا بها يا بلال » نسبة الصدق الاتباع والتصديق فيا مبصر نشر رياح المحبوبين هذه ثمرة أغصان فؤادك هل تجد من تلك الرياح نسمة تنعش بها أسماع قلوب المشتاقين ولو نسمة ما يرتاحون إليها كان بعض أهل الصدق والتصديق والتوفيق إذا كان عند انشقاق الفجر وهو تحت السقف بين الجدران يقول لمن حضره قد طلع الفجر فيخرجون فيبصرون الفجر كما انشق رتق جوه لأنه جاء « إذا كان عند السحر يرسل الله عز وجل من تحت العرش ريحا عطرة تثور وجه كل من كان يقظانا فى طاعة مولاه » ويؤخذ بقوة الكلام من مفهوم هذا الحديث الندب على توفية أفعال البر على اختلاف أنواعها من فرض وسنة وندب إلى غير ذلك من أنواعه إذ أن بذلك يحصل للعبد بفضل الله هذه المنزلة الرفيعة ويفهم منه أيضا كثرة الحذر وشدة النهى عن المعاصى والبدع التى بهما يحرم العبد هذه المنزلة الجليلة فمن فهم أناب لما صفت القلوب تلمحوا روائح القرب وإن كشفت حجب الجدران عللا قلبى بذكراهم فالقلب لهم والله مشتاق

(١) روى الترمذى فى سننه عن محمود بن خداش البغدادى قال حدثنا محمد بن يزيد الواسطى حدثنا عاصم ابن رجاء بن حيوث عن قيس بن كثير قال قدم رجل من أهل المدينة على أبى الدرداء رضى الله عنه وهو بدمشق فقال ما اقدمك يا اخى فقال حديث بلغنى انك تحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اما جئت لحاجة قال لا قال اما قدمت لتجارة قال لا قال ما جئت إلا فى طلب هذا الحديث قال فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من سلك طريقا يبتغى فيه علما سلك الله له طريقا إلى الجنة وان الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم وان العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ان العلماء ورثة الانبياء ان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما انما ورثوا العلم فمن اخذ به اخذ بحظ وافر » وهذا فى العلماء العاملين الذين يريدون بعلمهم ما عند الله تعالى كما سيأتى للشارح مصححه عفى الله عنه

(٢٩٥) ﴿ حديث أمر الله تعالى للحفظة بكتب حسنات العبد وسيئاته ﴾

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تبارك وتعالى إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها فان عملها فاكتبوها بمثلها وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة فان عملها فاكتبوها بعشر أمثالها إلى سبعمائة

ظاهر الحديث يدل على ثلاثة أحكام (أحدها) أمر الله سبحانه ملائكته أن العبد من بني آدم إذا أراد أن يعمل سيئة فلا يكتبونها عليه حتى يعملها فاذا عملها يكتبونها بمثلها (والحكم الثاني) أمره تعالى للملائكة أن العبد إذا أراد فعل سيئة فتركها من أجل الله تعالى يكتبون له بها حسنة (والثالث) أمره تعالى إذا أراد العبد أن يعمل حسنة فلم يعملها يكتبونها له حسنة واحدة فان عملها كتبوها له بعشر أمثالها حتى إلى سبعمائة مثلها والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال هل العبد على العموم في المؤمن وغيره ومن المأمورون بذلك ومن أين تعلم الملائكة ما في قلب هذا العبد وهذا من باب علم الغيب ولا يعلمه إلا الله عز وجل وكيفية الترك من أجله سبحانه وقوله ﴿ فاكتبوها بعشر أمثالها إلى سبعمائة ﴾ هل هذه التفرقة بين الأجور تعبد لا يعقل له معنى أو يعرف سببه وهل يزاد على السبعمائة أولا ﴿ أما قولنا ﴾ هل هذا على العموم في جميع العباد اللفظ محتمل لكن يخصصه مايعلم من قواعد الشريعة فان الله عز وجل يقول (والعمل الصالح يرفعه) أي أن كلمة الاخلاص هي التي يرفع بها العمل الصالح ومن ليس من أهلها فلا يقبل منه عمل هذا على قول من يقول أنهم مخاطبون بفروع الشريعة وعلى قول بأنهم مخاطبون بفروع الشريعة فلا يدخلون تحت هذا الحد وقد جاء في بعض الآثار « عبدي المؤمن » فارتفع بهذا النص الاحتمال الذي في اللفظ ﴿ وأما قولنا ﴾ من المأمورون بالكتب فقد نص عليهم الكتاب والسنة أما الكتاب فقوله عز وجل (وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون) وأما السنة فقوله عليه السلام « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر ثم يعرج الذين باتوا فيكم » الحديث رواه الأئمة ﴿ وفي هذا تنبيه ﴾ لك لعلك تستحي من مباشرتهم لك وقعودهم معك فتكف عما فيه هلاكك من سوء عملك وأنت مع عملك بهذا معرض كأنك لا تعلم إن من العلم لجهلا ﴿ وأما قولنا ﴾ من أين تعلم الملائكة ما في قلب العبد فقد جاء « إن الله عز وجل أجرى لهم عادة إذا أراد العبد أن يعمل سيئة يخرج على فيه رائحة ونتنة فيعلم الملك أنه قدم بسيئة فلا يكتبها حتى يفعلها وإذا أراد أن يعمل حسنة يخرج على فيه رائحة حسنة فيعلم الملك أنه أراد أن يعمل حسنة فيكتبها له حسنة كما هو مذكور في الحديث » أو كما قال عليه

السلام « لاحيا الله أخا البطالة عطر رياشه بالمسك والطيب وقد طبق الآفاق نتن فمه وجوارحه » هلا عبرت هذه الحالة بطيب (ونهى النفس عن الهوى) ﴿ وأما كيفية الترك ﴾ الذى هو لله فكيفيته أن لايرده عن تلك السيئة التى أراد فعلها إلا خوف الله تعالى من أجل عقابه أو حياء منه لأنه أهل أن يستحيا منه أو طمع فى وعده الجميل وهو قوله الحق (ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى) كما ذكر عن أصحاب الغار وهو أنه كان فى غار ثلاث أناس فنزلت على بابه صخرة عظيمة سدته فقالوا ماينجينا من هذا إلا أن يدعو كل واحد منا بخير عمل عمله خالصا لله تعالى فدعى أحدهم وسمى عمله الذى أخلص فيه لله فتفرج من تلك الصخرة بعضها ثم الثانى فعل مثل صاحبه فتفرج بدعائه من الصخرة مثل ماانفرج بدعاء صاحبه ثم الثالث قال فى دعائه اللهم إنك تعلم أنى أحببت امرأة وراودتها عن نفسها فأبت حتى أدفع لها مائة دينار فلما دفعت لها المائة دينار أمكنتنى من نفسها فلما قعدت بين شعبيها قالت لى اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه فاستحييت منك وتركت لها المائة دينار فان كنت تعلم أنى فعلت ذلك خوفا منك وحياء ففرج عنا ما بقى علينا من هذه الصخرة فانفرجت عنهم من جنبها وخرجوا من الغار » أو كما ورد وقد جاء « إن الله عز وجل جعل ملك اليمين يكتب الحسنات وملك الشمال يكتب السيئات وأن ملك اليمين مقدم على ملك الشمال وحاكم عليه فاذا فعل العبد السيئة وأراد ملك الشمال أن يكتبها قال له ملك اليمين اصبر عليه لعله يستغفر أو يتوب » فان تاب أو استغفر لم يكتب عليه شيئا وإن فعل حسنة خاصة منها بقدر السيئة وكتب باقى آخره فان لم يفعل شيئا من ذلك فحينئذ يكتبها عليه كما فعل بغير زيادة على ذلك ﴿ وفى هذا أتم دليل ﴾ على عظم لطف المولى بعباده المؤمنين وكثرة رحمته لهم وقوله ﴿ اكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ﴾ هل هذا تعبد لا يعرف له معنى يعطى الله من شاء ماشاء وذلك لسبب يعلم ظاهر اللفظ محتمل لكن يظهر ذلك من غير هذا الموضع وهو قوله صلى الله عليه وسلم « أوقع الله أجره على قدر نيته » وقد يكون مع حسن النية زيادة أسباب من الخير فى الحسنة نفسها توجب لصاحبها التضعيف فى الأجور مثل ماجاء « أن الذى يقرأ القرآن له بكل حرف عشر حسنات وأن الذى يقرؤه ويعلم لم خفض ورفع له بكل حرف مائة حسنة » وقد جاء « أن الذى يقرأ القرآن وهو قائم فى الصلاة له بكل حرف مائة حسنة وإن كان قاعدا خمسون وإن كان فى غير الصلاة وهو على طهارة خمسة وعشرون وإن كان على غير طهارة عشراً » أو كما ورد والله يوفق من يشاء إلى أسباب الزيادة فى أجور حسناته فضلا من الله ومنة ﴿ وأما قولنا ﴾ هل السبعمائة هى الحد لا يزاد عليها أولا لفظ الحديث ليس فيه مايدل على الزيادة ولا منعها لكن الكتاب العزيز أخبرنا بالزيادة على ذلك بقوله عز وجل (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء) وبقوله عز وجل (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) فحسبك من كريم ملى (ليس كمثله شيء * يعطى من يشاء بغير حساب) هل يدخل ذلك فيما تحده العقول ويترتب من الفائدة

على العلم بهذا الحديث وجوه منها قوة الرجاء فى الله تعالى الذى قد بسط لنا ظل فضله بهذا القدر من لطفه واعتناؤه بالمسىء منا وبالمحسن وتضاعف الحب والتكريم لمن جعل لنا وسيلة إلى العلم بهذا الخير العميم صلى الله عليه وسلم والنظر فى الأسباب التى بها تزكوا أعمالنا والأخذ فيما به يكفر خطايانا ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «ويل لمن غلبت أحاده عشراته» لأن السيئة بواحدة كما نص الحديث وأقل مراتب الحسنة عشر فتعسا لغافل يقترف عشر سيئات ثم لا يقدر أن يعمل حسنة واحدة تكفر عنه تلك العشر السيئات والويل واد فى جهنم ﴿تنبيه﴾ فان سمعته ولم تنتفع أو علمت ولم تعمل كنت كالحمار يحمل أسفارا أو ياليتها أسفارا بل جبال تسكبه فى النار أعاذنا الله من ذلك بفضله

(٢٩٦) ﴿حديث حسن ظن العبد بربه يوجب له ما أمله فيه﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ قَالَ اللهُ تَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي

ظاهر الحديث يدل على أن الله عز وجل مع عبده على قدر ظنه والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال هل هذا عام فى جنس العبيد كلهم مؤمنهم وكافرهم أو هو خاص بالمؤمنين الظاهر أنه عام فى كل العبيد لأن الكل عبيد لله عز وجل وهل الظن هنا على بابه أو هو بمعنى العلم هذا يحتاج إلى تقسيم إما أن يكون يريد بالظن ماهو راجع إلى العلم به جل جلاله وإلى أمور الآخرة وما فيها من رحمته عز وجل وعقابه وما فى معناه أو إلى أمور هذه الدار وما أجرى عز وجل فيها من خيراته وإحسانه لعباده ومافيها أيضا من نقمه وابتلائه أو راجع إلى ما كلف سبحانه عباده من طاعته واتباع رسله صلوات الله عليهم وما وعدتهم به الرسل عنه تعالى وما بشرتهم به من الشفاء من الآلام والأمور المخوفة بأيسر الأشياء مثل الارشاد إلى الثقة به عز وجل والتوكل عليه وكيف حال من فعل ذلك وصدقه والعامل عليه وما فى معناه فالموضع يدل على كل نوع من هذا أو ما فى معناه بوجوه عديدة إذا تتبعناها لكنها كلها مندرجة تحت هذه التنويعات ليس تخرج عنها فالذى راجع منها إلى العلم به جل جلاله فيجزىء فيه الوجهين أن يكون بمعنى العلم وأن يكون على بابه وهو الظن فأهل العلم به جل جلاله هو معهم لكل واحد منهم على قدر علمه به جل جلاله وهنا تقسيم التقسيمات التى تقدم ذكرها فى الكتاب على علم العوام وعلم الخواص وعلم خواص الخواص وكل منهم يجده سبحانه على قدر علمه به وقد تقدم فى هذا مافيه شفاء ومما قد ذكرنا فيه أن بعض من علمه جل جلاله بأوصاف الجلال والكمال ونفى الشبه والمثال رأى من أمور الغيب ما أخجله فهرع وقال أين لى هذا فقيل له عملت على الحق فأريت الحقيقة وعملوا على التأويل فعوملوا بحسب ما عملوا وأما أهل الجحد له أو الجهل بجلاله وتنزيهه وهم الكفار على اختلاف مراتبهم والمنافقون فليس يجحدونه هناك بل هم محجوبون عنه جل جلاله لقوله تعالى ﴿كلا إنهم عن ربهم

يومئذ لمحجوبون) وليس لهم مولى حتى يجدون منه هناك رحمة (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم) وهم كما قال الله تعالى (الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدلهم جهنم وساءت مصيرا) وأما أهل الشك وهم أهل الظنون به سبحانه بلا قطع لأحد الجهات فهم من جنس الكفار لأن الشك يجرى مجرى الكفر (وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرديكم فأصبحتم من الخاسرين) وإن كان فيما هو راجع إلى الآخرة فان كان من جهة التصديق بها أو بما فيها فنمشى على تقسيم الايمان به عز وجل فان من شروط الايمان به عز وجل التصديق بالآخرة وبما فيها وذلك من أوصاف المؤمنين كقوله عز وجل (وبالآخرة هم يوقنون) فان كان على الرجاء فى فضله عز وجل أن ينجيهم من عذابها ويمن عليهم بنعيمها فهناك يكون الظن بمعنى الرجاء والخوف لكن لا يخلوا أن يكون الخوف والرجاء لما هناك مع الأعمال المأمور بها أو مع عدمها فان كان مع عدمها فلا يسمى ذلك رجاء بل يسميه أهل العلم غرورا وذلك مظنة الهلاك وقد تقدم من البيان فيه بفضل الله ما فيه شفاء وكفى فى ذلك قوله تعالى (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل أولئك يرجون رحمة الله) وإن كان مع امتثال الأمر واجتناب النهى فذلك الذى يدخل تحت معنى هذا الحديث وكل على قدر حاله من حال العوام والخصوص وخصوص الخصوص لأن الله عز وجل يقول (ويزيدهم من فضله) فدرجهم عز وجل إلى الطمع فيه وفى فضله على غير عوض فظن كل واحد هنا على قدر عليه به سبحانه فان كان راجعا إلى هذه الدار وما فيها من نعمه سبحانه وأرزاقه فهنا كل يجده حيث أمله إذا كان مقرا وإن كان من غير المؤمنين لأنه جل جلاله قال مجاوبا للخليل عليه السلام حين قال (رب اجعل هذا البلد آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الاخر) قال جل جلاله (ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار) معناه ارزق من آمن وارزق من كفر ثم الكافر أسوقه إلى النار وقد ذكر أن ناسا سافروا فى برية ليس يوجد الماء فيها إلا قليلا فلحقهم العطش حتى مات أكثرهم وكان فيهم ذمى وكان البحر المالح قريبا منه فأتى البحر ورفع بصره إلى السماء وقال إن كنت لا ترضى بدينى فانك تعلم اضطرارى فلا تهلكنى وغرف من ماء البحر فوجده عذبا فشرب حتى روى وإن كان ممن لا يعرفه فهو سبحانه ينعم عليه بمقتضى قوله (ومن كفر) وإن كان من المؤمنين فهنا تتسع الدائرة فان مقاصد المؤمنين فى هذه الدار وما فيها كل على حسب همته وحاله من عوام وخصوص ولذلك قال أهل التحقيق عدد الطرق إلى الله تعالى على عدد أنفاس الخلائق معناه أن لكل واحد منهم طريقا يخصه كما أن صفاتهم فى حواسهم الظاهرة واحدة ولكل واحد فيها صفة تخصه يمتاز بها زيد عن عمرو وبكر عن خالد حكمة حكيم وإن كان الظن هنا راجعا إلى ما كلفوا من عبادته عز وجل واتباع رسله وما به وعدتهم الرسل صلوات الله عليهم وما يبشرهم عن مولاهم من وجوه الخير على نحو ما تقدم ذكره فى الأحاديث المتقدمة وفى الكتاب والسنة ومثل ما حد لهم فى بعض الأشياء من الشفاء من

الأمور المهولة والمهلكة بأيسر شيء مثل ما تقدم في أحاديث الكتاب الذي نحن بسبيله ومثل إرشادهم إلى التوكل على مولاهم وقوة الثقة به سبحانه وما في معناه فهذا خاص بالمؤمنين وهم في ذلك كل على قدر همهم وقوة إيمانهم وحسن تصديقهم وغلبة ظنهم الجميل بمولاهم الجليل والنظر إلى قوله تعالى وهو أصدق القائلين (ومن أصدق من الله حديثا ، ومن أصدق من الله قيلا ، ومن أوفى بعهده من الله ، فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون) وقوة عزمهم على حمل النفوس على العمل بالصدق والتصديق ولذلك قال أهل العلم والعمل من صدق وصدق قرب لاستحالة والضعفاء منهم على حالهم كل منهم على قدر ضعفه وتلونه وكثرة ميله وترجيح العادة على القدرة ويحمل ذلك بتأويله شرعا كل على قدر حاله وإذا نظرت إلى ما قدمناه من الكلام تجد كل نوع من هؤلاء قد بيناه والحمد لله بما فيه كفاية لمن نظره وهدى إلى العمل بحسب الطريق الراجحة منه ففي بعض هذه الأمور يكون الظن بمعنى العلم مثل ما ترجع إلى الطاعات والأمر والنهي فيكون الظن فيها وفيما هو في معناها بمعنى العلم لأن ذلك من كمال الايمان وما هو منها مثل البشائر وما جعل لهم من الشفاء من الأمور المخوفة والمهلكة بالأشياء اليسيرة فذلك وما في معناه راجع إلى أن يكون الظن فيه على بابه فمتى كان ظنه هنالك قويا وجد ما قيل له وزيادة ومتى كان ظنه ضعيفا كان بحسب حاله في ذلك يجده ومن وقع له بذلك تكذيب فذلك يلحق بالكافرين إلا أن يتوب ويرجع كما قال جل جلاله (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) لأن الظالم لنفسه هو المكذب به والشاك فيه والذي يفعل شيئا من ذلك على تجربة يعود ذلك كله على صاحبه بالخسارة وقد بينا ذلك في ما تقدم من الكتاب وذكرنا في بعض المواضع فعل ابن عباس حين تطلع له الدماميل ويطليها بالعسل ويتلوا الآية في ذلك أو كما ورد وقوله صلى الله عليه وسلم في الذي سقى أخاه العسل « صدق الله وكذب بطن أخيك » وفعل ابن عمر حين كان يرمد ويكتحل بالعسل أيضا ويتلوا الآية في ذلك أو كما ورد وما كان من بعض المشايخ في الشونيز والكلام عليه في حديثه المختص به من الكتاب وكذلك كل ما أشرنا إليه هنا قد تقدم الكلام عليه في موضعه من الكتاب بفضل الله وبقي في هذا الحديث أن ينظر ما فيه من الايجاز لفظة واحدة جاءت جامعة لمعاني السنة كلها أعني في الاعتقاد فيما يقع له في كل عمل فما من عمل إلا والنية منسحبة عليه كانت النية حسنة أو رديئة فالله تعالى يجازيه بحسب نيته في عمله وذلك هو الظاهر المراد في الحديث ويدل أيضا على عظمة الله تعالى وعظم قدرته وعلى جلال صفاته يؤخذ ذلك من قوله ﴿ أنا عند ظن عبدي بي ﴾ فاذا كان مع جميع العبيد على كثرتهم مع كل واحد واحد منفردا بحسب ظنه به في الزمن الفرد وهذا جار على ممر الدهور والأيام وكذلك الانفاس لأن قلب ابن آدم أشد تقلبا من القدر إذا اجتمعت غليا فكل تقلب من تقلبات قلوب الجميع هو عز وجل معهم على ما يكونون عليه هذا يدل على أنه تعالى (ليس كمثله شيء) ولا

يدرك بالعقل ولا يحد بالأذهان ولا يخطر بالأوهام موجود حقا (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) وإذا تأملت معنى ما أشرنا إليه هنا بتوفيق الله تعالى تجتمع لك الشريعة والحقيقة وحسن العقيدة وصالح الايمان وجميع خير الدنيا والآخرة ويشعرك بكل ما خالف ما ذكرناه جعلنا الله ممن فهمه ذلك وجعله من أهله بفضله لا رب سواه

(٢٩٧) ﴿حديث خطاب الله تعالى لأهل الجنة ورضائه عنهم﴾

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ فَيَقُولُ هَلْ رَضِيتُمْ فَيَقُولُونَ وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبَّنَا وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ فَيَقُولُ أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُونَ يَا رَبَّنَا وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُ أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا

ظاهر الحديث يدل على أن فضل نعيم الآخرة دوام رضى المولى سبحانه عن عبيده المؤمنين أهل دار كرامته والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ إثبات كلام الله سبحانه بذاته الجليلة لأهل الجنة يؤخذ ذلك من قوله ﴿إن الله سبحانه يقول﴾ فدل بقول سبحانه أنه عز وجل المخاطب لهم ثم بقرينة أخرى وهي جواب أهل الجنة بقولهم ﴿لبيك ربنا وسعديك والخير كله في يديك﴾ وبقولهم أيضا ﴿وما لنا لا نرضى يارب﴾ وبقولهم ﴿وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك﴾ وبقوله سبحانه ﴿ألا أعطيكم أفضل من ذلك﴾ وبقولهم ﴿ربنا وأي شيء أفضل من ذلك﴾ وبقوله سبحانه ﴿أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا﴾ فهذه كلها دلائل على أنه عز وجل هو المتكلم معهم بذاته الجليلة ﴿وفيه دليل﴾ على ما تقدم أول الكتاب من مذهب أهل السنة في كتابه العزيز أنه كلامه القديم الأزلي ميسر بلغة العرب وأن النظر في الكيفية في ذلك ممنوع ولا نقول بالحلول في المحدث التي هي الحروف والأصوات ولا نقول إنه دال عليه وليس بموجود بل الايمان بأنه منزل حق ميسر باللغة العربية صدق يشهد لذلك هنا خطاب مولانا جل جلاله لأهل الجنة وكيف ييسر لهم سمع كلامه القديم الأزلي بلغة العرب لأن الألفاظ التي في الحديث هي علم مقتضى اللغة العربية وكذلك جاء أن كلام أهل الجنة بلغة العرب فيسر لهم عز وجل سمع كلامه القديم القائم بذاته الجليلة لأن الصفة الجليلة لا تفارق الموصوف فأسمعهم إياه بالنوع الذي هو لغتهم ليفهموا عنه سبحانه ما أراده لهم بفضله ولا يمكن لأحد أن يتعرض للكيفية فكما